جامعة تكريت/ كلية العلوم الاسلامية

قسم : الفقه واصوله

مدرس المادة : م. عمر سبتي حسن

المحاضرة التاسعة لمادة السيرة النبوية

المرحلة : الثانية / الكورس الثاني

فتح مكة / القسم الثاني من المحاضرة

لقد تعمد الرسول محمد(صلى الله عليه وسلم) شن الحرب النفسية على أعدائه أثناء سيره لفتح مكة، حيث أمر الرسول بإيقاد النيران، فأوقدوا عشرة آلاف نار في ليلة واحدة حتى ملأت الأفق، فكان لمعسكرهم منظر مهيب كادت تتخلع قلوب القرشيين من شدة هوله، وقد قصد الرسولُ محمد (صلى الله عليه وسلم) من ذلك تحطيمَ نفسيات أعدائه والقضاءَ على معنوياتهم حتى لا يفكروا في أية مقاومة، وإجبارَهم على الاستسلام لكي يتم له تحقيقُ هدفه دون إراقة دماء.

الاقتراب من مكة والتخطيط لفتحها

عندما وصل الرسولُ محمدٌ(صلى الله عليه وسلم) إلى ذي طوى وزع المهام على النحو الآتي:

جعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وفيها قبائل أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب، فأمره أن يدخل مكة من أسفلها، وقال: ((إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً، حتى توافوني على الصفا)).

جعل الزبير بن العوام على المجنبة اليسرى، وبعثه على المهاجرين وخيلهم، وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه.

جعل أبا عبيدة على البياذقة (الرجالة) وبطن الوادي.

بعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة الرسولِ محمدٍ(صلى الله عليه وسلم) ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وبهذا كانت المسؤولياتُ واضحةً، وكل قد عرف ما أسند إليه من مهام والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مرَّ بأبي سفيان قال له: ((اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً))، فلما حاذى الرسولُ محمد (صلى الله عليه وسلم) أبا سفيان قال: ((يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد))، قال: ((وما قال))، فقال: كذا كذا، فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: ((يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة))، فقال الرسولُ محمد (صلى الله عليه وسلم): ((بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً))، ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس بن سعد بن عبادة، وقيل أن اللواء لم يخرج عن سعد، وقيل: بل دفعه إلى الزبير.

وقال الرسولُ محمد(صلى الله عليه وسلم): ((يا أبا هريرة ادع لي الأنصار))، فدعاهم فجاءوا يهرولون، فقال: ((يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش قريش؟))، قالوا: ((نعم))، قال: ((انظروا إذا لقيتموهم غدًا أن تحصدوهم حصدًا))، وأخفى بيده ووضع يمينه على شماله وقال: ((موعدكم الصفا)).

ودخل أبو سفيان إلى مكة مسرعًا ونادى بأعلى صوته: ((يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن))، فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: (اقتلوا الحميث الدسم الأحمس، قبح من طليعة قوم)، قال: (ويلكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم؛ فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن)، قالوا: (قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟)، قال: (ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن)، وتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

دخول المسلمين مكة

دخلت قواتُ المسلمين مكةَ من جهاتها الأربع في آنٍ واحدٍ، ولم تلق تلك القوات مقاومة تقريباً، وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربةٌ قاضيةٌ لجنود قريش، حيث عجزت عن التجمع، وضاعت منها فرصةُ المقاومة، وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التي لجأ إليها الرسولُ محمدٌ(صلى الله عليه وسلم) عندما أصبح في مركز القوة في العدد والعتاد، ونجحت خطة الرسول؛ فلم يستطع المشركون المقاومة،

ولا الصمودَ أمام الجيش الزاحف إلى أم القرى، فاحتل كل فيلق منطقته التي وُجّه إليها، في سلم واستسلام، إلا ما كان من المنطقة التي توجه إليها خالد بن الوليد، فقد تجمع بعضُ رجال قريش ومنهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو وغيرهم مع بعض حلفائهم في مكان اسمه "الخندمة" وتصدوا للقوات المتقدمة بالسهام، وصمموا على القتال، فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم، وما هي إلا لحظات حتى قضى على تلك القوة وشتت شمل أفرادها، وبذلك أكمل الجيشُ السيطرةَ على مكة المكرمة.

النفر الذين أهدر الرسولُ محمد(صلى الله عليه وسلم) دمَهم

أهدر الرسولُ محمد(صلى الله عليه وسلم) يومئذ دماء تسعة نفر من المشركين، وأمر بقتلهم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة، وهم: عبد العزى بن خطل التميمي، وعبد الله بن أبي سرح القرشي، وعكرمة بن أبي جهل القرشي، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة الكناني، وهبار بن الأسود القرشي، وقينتان كانتا لابن خطل، كانتا تغنيان بهجو الرسول محمد(صلى الله عليه وسلم) ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب بن هاشم، وهي التي وجد معها كتاب حاطب بن أبي بلتعة.

ومن هؤلاء من قُتل، ومنهم من جاء مسلمًا تائبًا فعفا عنه الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وحسُن إسلامه. فأما ابن خطل فكان متعلقاً بأستار الكعبة، فجاء رجل إلى الرسول محمد(صلى الله عليه وسلم) وأخبره فقال: (اقتله)، فقتله، وأما ابن أبي سرح، فجاء به عثمان إلى الرسول محمد(صلى الله عليه وسلم) ، وشفع فيه فحقن دمه، وقبل إسلامه، وأما عكرمة بن أبي جهل فأسلم وأمَّنه الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وأما الحارث فكان شديد الأذى للرسول بمكة، فقتله علي، وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبد الله، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتد ولحق بالمشركين، وأما هبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت الرسول محمد(صلى الله عليه وسلم) حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، ففر هبار يوم مكة، ثم أسلم وحسن إسلامه، وأما القينتان فقتلت إحداهما، واستؤمن للآخرى فأسلمت، كما استؤمن لسارة وأسلمت.

إعلان العفو العام

نال أهلُ مكة عفوًا عامًّا رغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول محمدٍ (صلى الله عليه وسلم) ودعوته، ومع قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) فيهم، فقال: (ما تظنون أني فاعل بكم؟)، فقالوا: (خيرًا أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ)، فقال: (لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ). وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل أو السبي، وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها، فلم تُعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة؛ لقدسيتها وحرمتها عند المسلمين، فهم يؤمنون أنها دار النسك، ومتعبد الخلق، وحرم الرب تعالى.

كما أجار الرسولُ محمد(صلى الله عليه وسلم) رجلين من بني مخزوم، كانت أم هانئ بنت أبي طالب قد حمتهما، إذ قالت أم هانئ بنت أبي طالب: لما نزل رسول الله بأعلى مكة فر إليَّ رجلان من أحمائي، من بني مخزوم، وكانت عند هُبيرة بن أبي وهب المخزومي، قالت: فدخل عليٌّ بن أبي طالب أخي، فقال: (والله لأقتلنهما)، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة إن فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إليَّ فقال: (مرحبًا وأهلاً يا أم هانئ، ما جاء بك؟)، فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي، فقال: (قد أجرْنا من أجرتِ وأمنا من أمنت، فلا يقتلهما).

دخول أهل مكة الإسلام

كان من أثر عفو الرسولِ محمد(صلى الله عليه وسلم) الشامل عن أهل مكة، والعفو عن بعض من أَهدر دماءَهم، أن دخل أهلُ مكة رجالاً ونساءً وأحرارًا وموالي في الإسلام طواعيةً واختيارًا، وبدخول مكة تحت راية الإسلام دخل الناس في الإسلام أفواجاً، وبايع الرسولُ(صلى الله عليه وسلم) الناس جميعاً الرجال والنساء، والكبار

والصغار، وبدأ بمبايعة الرجال، فقد جلس لهم على الصفا، فأخذ عليهم البيعة على "الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا".

وجاء مجاشع بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح فقال للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم): (جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة)، فقال الرسول: (ذهب أهل الهجرة بما فيها)، فقال: (على أي شيء تبايعه؟)، قال: ((أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد)).

ولما فرغ الرسولُ محمد(صلى الله عليه وسلم) من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه، يبايعهن بأمره، ويبلغهن عنه، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنكرة خوفاً من الرسولِ أن يعرفها، لِما صنعت بعمه حمزة، فقال الرسولُ محمد(صلى الله عليه وسلم): ((أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً))، فبايع عمر النساء على ألا يشركن بالله شيئاً، فقال الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم): ((ولا تسرقن))، فقالت هند: ((إن أبا سفيان رجل شحيح، فإن أنا أصبت من ماله هنات؟))، فقال أبو سفيان: (وما أصبت فهو لك حلال)، فضحك الرسولُ وعرفها، فقال: (وإنك لهند)، قالت: ((نعم، فاعف عما سلف يا نبيّ الله، عفا الله عنك))، فقال: ((ولا يزنين))، فقالت: ((أوتزني الحرة))، فقال: ((ولا يقتلن أولادهن))، فقالت: ((ربيناهم صغاراً، وقتلتموهم كباراً، فأنتم وهم أعلم)) -وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر- فضحك عمر حتى استلقى، فتبسم الرسول فقال: (ولا يأتين ببهتان)، فقالت: (والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق)، فقال: (ولا يعصينك في معروف)، فقالت: (والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك)، ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: (كنا منك في غرور).

إسلام صفوان بن أمية

لم يكن صفوان ممن أهدر دمه، لكنه بصفته زعيماً كبيراً من زعماء قريش خاف على نفسه وفَرَّ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي القرشي الرسولَ فأمنه،

وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جدة إلى اليمن فردَّه، فقال للرسول محمد(صلى الله عليه وسلم): ((اجعلني بالخيار شهرين))، قال: ((أنت بالخيار أربعة أشهر))، ثم أسلم صفوان، وقد كانت امرأته أسلمت قبله، فأقرهما على النكاح الأول.

نتائج فتح مكة

كان لفتح مكة نتائج كثيرة منها: أن دخلت مكةُ تحت نفوذ المسلمين، وزالت دولة قريش منها، وأصبح المسلمون قوة عظمى في جزيرة العرب. وتحققت أمنية الرسولِ محمد(صلى الله عليه وسلم) بدخول قريش في الإسلام، وبرزت الدولة الإسلامية قوةً كبرى في الجزيرة العربية لا يستطيع أي تجمع قبلي الوقوف في وجهها.